الاصول الوسطوية لعدم التسامح

جاك لوغوف
ترجمة لحسن عابيد

ظهرت مقولة التسامح (وفي ارتباط معها عدم التسامح) في القرن السادس عشر الميلادي، وواحد من استعمالاتها العمومية الاولى يرجع إلى مرسوم التسامح(1592) l'édit de tolérance ، الذي تم بموجبه منح حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية للبروتستانت. ومعلوم أن مقولة التسامح (وعدم التسامح) أصبحت متداولة ومستعملة بكثرة عند نهاية القرن السابع عشر. وفي أيامنا هذه، بدا أن فكرة التسامح ليست أمرا معطى، بل تقتضي بذل مجهود لقبول فكرة وسلوك ما. لكن، قبل ظهور حدي التسامح وعدم التسامح، كانت الممارسات الفردية والجماعية ـ فيما سيعرف في المستقبل بأوربا الغربية ـ تغطي وتشمل وقائع بإمكاننا أن نصنفها اليوم في خانة التسامح أو عدمه.

إن عدم التسامح يكشف عن نفسه بإجراءات مثل المنع أو الإقصاء أو الاضطهاد. وإذا نحن نظرنا إلى موضوعنا في إطاره التاريخي أمكننا القول إن اليونان القديمة، (وهي تمثل أول نسق تنظيمي سياسي في الغرب بالمعنى الحقيقي) كانت عبارة عن ديمقراطية للمدن، وكانت تحد من مجال الحرية والمساواة بواسطة القوانين التي تجعل من الفرد تابعا لنظام المدينة السياسي، وغير مستقل عنها.

أما في العصر الوسيط (وهو يمتد من القرن الخامس إلى الخامس عشر الميلادي ويعطي الفترة التي عرفت تشكل نظام القيم والسلوكات في الغرب)، فإن هناك حدثين كبيرين سيعملان على إحداث قطيعة وجدة بالمقارنة مع الفترات التاريخية السابقة، ـ حتى وإن كانت هذه الفترات الأخيرة قد زودت المجتمع الجديد بجزء من إرثه الثقافي والذهني ـ فإنها تتمثل في ظهور المجتمع المسيحي واستقرار ما يسمى بالشعوب البربرية.

وابتداء من القرن السابع الميلادي سيظهر، خاصة في شرق وجنوب العالم المسيحي، تكتل ديني وسياسي جديد يتمثل في الإسلام الذي خلق وضعا جديدا.

لقد احتفظ الدين المسيحي أثناء عملية تشكله بذكرى حية لا تموت أبدا عن أشكال الإضطهاد التي كان المسيحيون عرضة لها من طرف الامبراطورية الرومانية الوثنية. ومرد ذلك إلى المكانة الرفيعة لذكرى الشهداء في هذا الدين، وإلى قوة مؤسسات الذاكرة داخل الكنيسة والمجتمع، الأمر الذي لم يحل دون توجيه المسيحية بدورها نفس الاتهامات ضد كل الذين عملت على إقصاءهم. وتتمثل هذه الاتهامات في جرائم القتل المرتبطة بممارسة الطقوس الدينية، ورفض الممارسات الجماعية الرسمية، واللجوء إلى السحر والشعوذة، وفي اعتماد نفس الممارسات وإجراءات الحبس المفضية للقتل تجاه العناصر التي لم تبادلهم تسامح، من أمثال ذلك اليهود، الهراطقة، السحرة، وكل الذين عمدوا إلى القيام بممارسات دينية(طقوس) اعتبرتها المسيحية سحرية وخرافية، وأخيرا أصحاب الجنسية المثلية.

في حين تعد الفترة المتقدمة من القرون الوسطى مرحلة نسبيا متسامحة. إن اعتناق الدين المسيحي من طرف شعوب جديدة، الذي كان يتم بكيفية إرادية بهذا القدر أو ذاك، والمثاقفة (الحاصلة) كل ذلك أدى إلى تحقيق درجة معينة من الإندماج الديني والسياسي والإجتماعي والقانوني.

علاوة على تنصير/ تمسيح الشعوب، تكونت الدولة المسيحية والإمبراطوريةCarolingien. كما ظهر المجتمع الفيودالي، وفي المرحلة Carolingien. وهكذا شهدنا في هذه الفترة حصول نوع من التعايش بين المسيحيين واليهود.

أما المسلمون الذين كانوا مصدرا للعدوان(ضد المسيحيين) فإنهم كانوا موضوعا لإجراءات دفاعية وإقامة الحصون.

لكن الوضع سيتغير بعمق ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي إلى الرابع عشر. إذ سيصبح المجتمع المسيحي"مجتمع اضطهاد"باستفادته من ارتفاع نسبة النمو الدموغرافي والإقتصادي والعسكري والسياسي والثقافي، فاتخذ على إثر ذلك إجراءات للدفاع عن المكتسبات ضد كل الذين رأى فيهم تهديدا لها، فامتلك وسائل القمع والعدوان. وكان الضحايا الأوائل لهذا العدوان هم: اليهود والمسلمين، فهؤلاء سيتم إبعادهم باعتبارهم أتباع محمد الساحر، وكانوا موضوعا لحرب عادلة. وهكذا فإن طردهم سواء من إسبانيا أو صقلية لا يمكن تبريره إلا باعتباره حرب استرداد. أما في الشرق الأوسط فإن الحروب الصليبية(1095 ـ 1291) شكلت بدورها محاولة لاسترداد الآماكن المقدسة من طرف المسيحيين(هذا على الرغم من كونها لم تكن قط تحت سيادة المسيحية)، مما فتح الباب على مصراعيه أمام مرحلة من العدوان وغزو العالم الإسلامي.

أما بالنسبة لوضعية اليهود فهي وضعية معقدة جدا، فهم وإن كانو جسما غريبا منبتا داخل البلاد

المسيحية، فإنه، على الرغم من ذلك، حصل تمازج من خلال الأصول الدينية المشتركة، ومن خلال السكن المتفرق لليهود في أوساط المسيحيين.

ومعلوم أن اضطهاد اليهود عرف بداياته الأولى على طول طرق الحروب الصليبية، وكانت التهم الموجهة إليهم كثيرة : فهم متهمون بكونهم رفضوا الحقيقة التي جاء بها السيد المسيح، وبكونهم هم من قتله، وبجملة الجرائم التي اقترفوها ضد الأطفال المسيحيين، وبتدنيس الأماكن الدينية المقدسة لدى المسيحيين وبالإستغلال الإقتصادي للمسيحيين من خلال الربا. كل هذه التهم أفضت بهم لأن يكونوا عرضة لأشكال من الإضطهاد بمبادرة من الكنيسة والحكام أو الشعوب. ويتمثل الإضطهاد الذي تعرض له اليهود في عقاب اقتصادي برفض اتجارهم في الأموال (الربا) وفي هدم بيعهم وإحراق كتبهم الدينية (التلمود). وجعلهم يحملون نجمة صفراء تميزهم، والتنكيل بهم، وأخيرا تم إقصاؤهم أو بتعميم غيتوات خاصة بهم.

ويوجد أيضا من بين الدين تعرضوا للإقصاء الهراطقة(أصحاب البدع)، الذين نادرا ما كان يتم التسامح معهم، حيث كانوا أكثر عرض للإضطهاد والقمع، لأن الكنيسة رأت فيهم خطرى ماحقا أكبر على وحدة المسيحيين ابتداء من اللحظة التي عوض أن نجد أنفسنا أمام هرطقات يقوم بها رجال الدين وجماعات هرطقية أخرى كما كان الشأن في العصر الوسيط المتقدم، عوض ذلك ظهرت هرطقات جماعية كتلك التي قام بها الألبيجان Les cathares الذين طرحوا جانبا الحقيقة (حقيقة الدين)بعد أن آمنوا بها، إنهم منكرو الدين والعقيدة.

وهكذا طبقت عليهم الكنيسة(ومعها السلطات المدنية) أحكاما باعتبارها سلطة مدنية، ووضعت ضدهم محاكم استثنائية. وبذلك دشنت عهد محاكم التفتيش وأشعلت النار في المحارق.

إن الباعث العميق على وضع وإقامة مثل هذا النظام من الإضطهاد والاقصاء هي إرادة تكوين مجتمع مسيحي خال من العناصر التي تم اعتبارها غير قابلة للانصهار وغالبا ما وسمت بكونها غير صالحة للإنصهار والاندماج، وقادرة على نقل العدوى إلى مجموع المجتمع.

ولقد تقوت مثل هذه السيرورة في عدم التسامح من خلال انتقال الكنيسة إلى ملكية بابوية، وتشكل الدولة الوطنية الهادفة إلى حصر المجتمعات الوطنية في طبقات هرمية للأفراد تختزل في نموذج واحد مطابق، وتزايد النزاعات القومية التي عرفت ميلادها في فرنسا وانجلترا مع حرب المائة سنة. كما ظهر ضحايا جدد تعرضوا لعدم التسامح أمثال المرضى المصابين بالبرص الذين تم سجنهم خارج المدن في مستشفيات خاصة، وأصحاب الجنسية المثلية الذين كانوا موضوعا للتسامح حتى القرن الثالث عشر الميلادي، لكنهم سيتعرضون

للإقصاء بقوة بسبب ممارستهم "المنافية للطبيعة". ومعلوم أن انتشار مفهوم الطبيعة من طرف السكولائيين عمل على مضاعفة مثل هذا النزوع نحو الصفاء.

وعند نهاية القرن االخامس عشر الميلادي ظهرت بإسبانيا ـ وهي بلاد انتشار محاكم التفتيش ـ، فكرة عنصرية خالصة تمثلت في "صفاء الدم". فانتشرت هذه الإيديولوجيا في المجتمع الإسباني برمته، (كما) ظهرت أشكال من الإقصاء لكنها خارج المدن وعلى جنبات الطرق، وفي سجون عديدة خاضعة لنظام صارم يشرف عليها رجال أمن أشداء، في حين كانت الجامعات مثل السوربون تراقب الانحرافات الفكرية.

وعند نهاية القرن الخامس عشر أصبح النظام الحديث لعدم التسامح والاقصاء والاضطهاد قائما، وإن كان (هناك) بنيات وذهنية تحافظ على التسامح فإن ذلك تم بالحد من تعبيره وآثاره.